على أطلال الماضى

وقفة على «إيوان كسرى»

للأستاذ على الطنطاوى

خرجنا من بغـداد فسلكنا على « حيّ البتاويين » ظاهر « الباب الشرقى » ، وجزنا على قصوره الشمّ التى تتكىء فيها الارستقراطيـة الناعمة على الأرائك سكرى بخمرة الذهب ، ومرنا الى « الهنيدى » فى الطريق التى تنام على بسـط الحقول السندسية ، يحرسها صفّان من النخيل ، حتى انتهينا الى « المعسكر البريطانى » صرح أكاسرة اليوم ، فتركناه وأممنا صرح أكاسرة الأمس لنقف عليه ذاكرين معتبرين

عبرنا نهر « ديالى » وخلفنا القرية جاثمة على كتف النهر ، قد دلّت رجليها فى مائه ، واستقبلنا الفـلاة الواسعة ، فما عدنا نرى إلا الفضاء ؛ حتى إذا سرنا فيها ساعتين طلعت علينا قرية « سلمان » تلوح على حاشية الأفق ، تضيحُ وتغيب ، ثم تبيّناها ورأينا قبـة مسجدها واضحة ، ورأينا بجنبها بناء ضخما كأنه جبل ... فقلت : ما هذا ؟ قال صحبى : هذه قبة سلمان الفارسى ، وهذا إيوان كسرى . فقلت : ياللعجب ! أطاف سلمان حتى استقر قبره بجانب الايوان ، فغـدوا متلاصقين ، وبدوا متعانقين ؟ وحثثنا « الدرّاجات » الى القرية فبلغناها بعد ساعة

كانت قرية صغيرة ، نشأت على تربة سلمان رضى الله عنه ، ليس فيها — إلا مسجده — شىء يذكر ؛ أما الايوان فهو فى ظاهر البلد ، متربع على ظهر الفلاة وحيد معتزل ، مطرق حزين !

* * *

وقفنا عليـه فاذا هو (طاق) عالٍ متهدم ، وجدار شامخ متصدّع ، وإذا هو ضخم فخم ، ولـكنه عار موحش ، ليس فيه صورة ولا نقش : لا صورة انطاكية التى تروع بين روم وفرس ، ولا أنوشروان الذى يزجى الصفوف تحت الدرفس ، ولا عراك الرجال بين يديه فى خفوت منهم وإغماض جرس ، من مشيح يهوى بعامل رمح ، ويليح من السنان بترس . . .

لقد محا الدهر الصورة ، كما محا أهلها ، ودار الزمان دورة أخرى ، فأصبح حاضر البحترى ماضياً وعيانه أثراً . . . ذلك لأن الماضى نقطة واحدة ، تتلاقى فيها الأبعاد ، وتضيع المسافات ، وتفنى الدهور . . . نقرأ قصيدة البحترى ، ونرى الايوان ، فنحس أنهما قد التقيا فى عالم الماضى وضاع ما كان بينهما من عصور ، كما التقت آثار « سرّ من رأى » بأطلال بابل ،

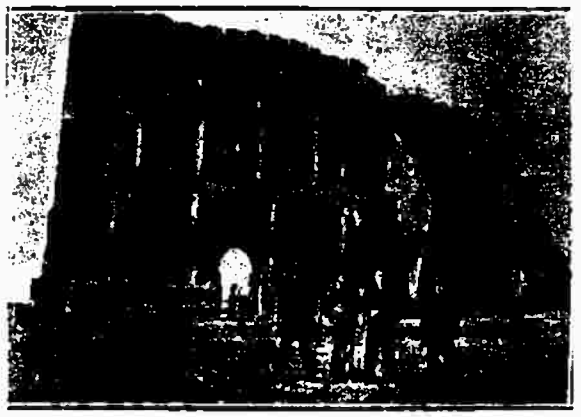

(المنظر الأمامى للطاق وللجدار)

فكان حكمهما فى الخيال واحداً وأثرهما فى النفس واحداً ، وكما التقت فى أبصارنا ونحن قادمون على القرية قبة سلمان بالايوان ... ومن لعمرى يدرك الزمن الذى كان بين آدم ونوح ، وابراهيم وموسى ، وبلقيس والزباء ، وهوميروس وأفلاطون ، وحروب طروادة وفتوح اسكندر ؟ إن الحوادث كلما أمعنت فى المضىّ ، ضاعت من بينها الأزمنة وامّحت الأبعاد

* * *

وليس يهيج النفس ويثيرها كرؤية أطلال الماضى والوقوف بآثار الغابرين ؛ ففيها روعة البقاء ، وهول الفناء ، وعبرة الدهر ؛ وهى نوافذ تطلّ منها النفس على عالم المجهول الذى تحنّ اليه أبداً ولا تنى تقرع بابه ، فتتحرر فيها ساعة من قيود المـادة ، وتطير فى مسارب الأحلام

ولقد وقفت على الاهرام ، ومررت على الحديبية ، وجلست فى العقيق ، وعرّجت على حطّين ، وزرت بعلبك ، فكان شعورى فى ذلك كله كشعور اليوم وأنا فى المـدائن أمام إيوان كسرى ... أستعظم الأثر وأعجب بجلاله ، وأكبر القدرة التى أنشأته ، ثم أعود بفكرى إلى الماضى فأحس بأن صفحته تنفتح أمامى فأرى حقيقة شاهدة كل ماقد قرأت فى الكتب ، وأتخيّل أنى مع الغابرين أسمع وأرى ، فأرانى قد عشت دهوراً ؛ ثم أقابل

وأعتبر ، ثم أذهل عن نفسى ، وأجول بفكرى وخيالى فى آفاق كثيرة لم أرها من قبل

(منظر الطاق من داخله والجدار الخلفى القصير وفيه أحد الأبواب الثلاثة الباقية)

فى الآثار الباقية للأمم الماضية يلتقى أعظم شيئين وأجلهما : الزمان والمكان ؛ فتلمس القرون تنحدر على صخر الهرم ، أو أعمدة بعلبك ، أو آجر الايوان ، هذا الآجر الذى حمل أعباء القرون السبعة عشر . يا لروعته وجلاله ! إنى لأحتقر نفسى وأنا قائم بقامتى القصيرة الهزيلة حيال هذا الكائن الجبار الهائل ، ثم أعود فأرى كل شىء دونى حقيراً ، أنا الحىّ ، وأنا الباقى ، وما هذه كلها إلا أثر من آثارى ، ليس لها لولا فكرى وجود ولا لوجودها معنى ...

* * *

أطفت بالايوان فى خشوع وإكبار ، ووقفت على بابه فى هيبة وإجلال ، ثم دخلت من الصحراء فاذا ... فاذا أنا خرجت إلى الصحراء ، الصحراء الصامتة صمت الموت ، الموحشة وحشة القبرة ، الممتدة امتداد الزمان ... وقفت أستنشق عبير المجد ، وأتسمّع نشيد العظمة ؛ فما سمعت إلا صفير الرياح ، ولا نشقت إلا رطوبة الفناء . لمست الجدار فما أحسست إلا برودة الحجر ؛ تسلقت الجدار حتى كلّت رجلاى ولم أبلغ نصفه ، فجلست على لبنة بارزة لأستريح ، وتلفّت ... فاذا الأفق الواسع الرحيب وإذا الناس كالنمل ، وإذا القرية كأنها كومة من الحجارة ، مكومة فى أعماق الوادى ، وإذا دجلة تجرى بعيداً تلبس حلة من نور الشمس فتبدو لامعة تزيغ منها الأبصار ، وإذا أنا وحدى معلق بين السماء والأرض ، فمشت نفسى ، وأخذنى الدُّوار ، وهممت بالسقوط ، فأغمضت عينىّ كيلا أرى شيئا

أغمضت عينىّ ، وفتحت قلبى ، فرأت البصيرة ما لا يراه البصر : رأيت أنى قد ذهبت أتخطى أعناق القرون وأطوى سجل الزمان ، وأدير بفكرى دولاب الفلك ، فيكرّ راجعاً . . ازّخرفت هذه الجدران العارية وأخذت زينتها ، وعادت هذه الأبواب ، فأسدلت عليها سُتر الوشى والديباج ، وتحلّت هذه السقوف بالصور والنقوش وتدلت منها سلاسل الذهب ، تحمل الثريات المرصّعة باللؤلؤ . . . عاش الايوان ، وقام فى صدره سرير أنو شروان ، ورجع المجد وعاد السلطان

وحلّت الحياة فى هذه الصحراء ، فنبعت المدائن والقصور من الأرض نبعاً ، ونبتت منها نباتاً ، فنمت فى لحظة وأورقت ، وعلت واستطالت ، ولوّنت الحياةُ هذه البرية الكالحة بألوان الزهر ، فعادت حدائق وبساتين ، كانت لهذه المدائن كالاطار ، فرأيتها أعظم المدن ، وقصورها أفخم القصور ، والايوان أجلّ صروحها وأعلى ذراها ، ورأيت هذه الأبواب التى كانت منذ ساعة تفضى من الصحراء إلى الصحراء ، مفتّحة للرياح والذئاب ... قد قامت عليها الحجاب ، ووقفت دونها الملوك ، وحل على أعتابها المجد ، والجدران التى كانت عارية مصدّعة ، قد شمخت وبذت وعزّت ، حتى غدت والطير تخشى أن تطير فوقها ، أو تحوّم فى سمائها ، ورأيت دجلة التى كانت منذ ساعة تجرى فى البادية بعيدة عن الايوان ، معرضة عنه ، لا تلتفت إليه ، ولا تأبه له ، قد غدت ساقية . . . تمشى خاضعة وسط المدائن ، وتنحنى لتعقد على كتفيها القناطر والجسور ، وتفتح صدرها لتضم ظلال هذه القصـــور ، وهى تستنقع فيها فى أمسيات الصيف الحارة !

ورنوت بعينى إلى هنالك ، إلى الحيرة ، فاذا الخورنق السامق يعنو للايوان كما يعنو صاحبه لربه ؛ ورميت ببصرى إلى بعيد . إلى الجزيرة ، فاذا فيها أشباح تجىء وتروح خلال الضباب ، تموج كأنها فى بحر واسع ، وكأن خباءها سفائن يحملها الموج ، ويمشى بها مد وجزر ، ولكن هذه الأمواج تتكسر على صخرة الايوان ثم ترقد ضعيفة وانية ، والايوان مشمخر عات ، لا ملك أعظم من ملكه ، ولا سلطان أعظم من سلطانه ، ولا إنسان أعز من ربه ؛ وأمتد ببصرى إلى المشرق والمغرب فلا أرى كالايوان ثروة وجاها وعظمة ومجداً ...

ولكن ... مه ! إن فى البادية لشيئاً جديداً ؛ إنها تضطرب وتهتز ؛ إن فيافيها تتمخض بالحياة ، ها هوذا النور يشق الضباب الكثيف ، حتى يلمع كالبرق الخاطف ، بين قصور المدائن وتحت أقبية الايوان ... لقد ضرب محمد (صلى الله عليه وسلم) صخرة الخندق ، فأضاءت المعجزة الايوان ، فوعده أتباعه وقال لهم : هذا الطريق

ياللعجب العجاب ! إن هـذه القرية الملتفة فى ألحفة الرمل ، النائمة على صخور الحرة ، المتوسدة سفح أحد ، وجوانب سلع ، تريد أن تأكل المدائن ! .. بلغ كسرى الخبر ، فضحك حتى استلقى ... ثم جاء كسرى الكتاب ، فعبس وبسر ، وأعرض واستكبر ، ومزق كسرى كتاب سيد العالم ...

لقد نطق سيد العالم بالحكم النافذ : ليمزقن الله ملك كسرى

* * *

وفتحت عينىّ فاذا الحلم قد تصرم ، فغاضت المدائن فى الأرض ونزعت الجدران ثيابها ، وابتلعت الصحراء زهرها ووردها ، وعادت قاحلة ليس فيها إلا هذه الأنقاض جاثمة على ظهرها ، قد حطمها الكبر ، وثقلت عليها السنون ، فانحنت حتى تسلق صبية القرية سطحها يلعبون عليه ...

* * *

الصبية يلعبون على سطح الايوان ! أين كسرى يرى ما صار إليه إيوانه ؟ أبناء العرب يتلهون بمجلسك ياشاهنشاه ! لقد قوّض المجلس ، وثلّ العرش ، وهوى التاج ، فما أنجدك الجند ، ولا أغنى عنك الغنى ، ولا حمتك الحيّة ، ولا آواك الايوان !

لقد مزّق البدو ملكك يا كسرى ؛ وما هذا عجيباً ، فالتمزيق أسهل من الترقيع ، والهدم أهون من البناء ؛ ولقد هدم البرابرة من قبل عرش الرومان ... غير أن هؤلاء البدو — يامليك — قد أسسوا حضارة خيراً من حضارتك ، وبناء أجل من بنائك ، وحكموا أعدل من حكمك . لقد أثمرت حضارتهم حضارة القرن العشرين ، وحضارتك لم تثمر شيئاً

لقد بنت ديموقراطية عمر الذى كان ينام على التراب ، ويلتحف بالبرنس ، ويؤدب بالدرة ، ويعين الفقير ، ويخدم العجوز ، وينصف من نفسه ، لقد بنت ديموقراطيته دولة . أما جبروتك ، وعظمتك الجوفاء ، واستعبادك الناس ، فلقد هدم دولة !

هذه بغداد الاسلام ؛ فيها أربعمائة وخمسون ألفاً ؛ وهـذا إيوانك تصفر فيه الرياح الباردة صفير الفناء المرعب ، وتنشـد فيها الطبيعة نشيد الموت !

(المنظر الجانبي للطاق)

من الذى كان يفكر أيام عزّ الايوان أن صبية العرب ستلعب فى أنقاضه ؟ من الذى يفكر اليوم بأن أطفال الحبشة ستقفز على أطلال روما ؟ لا تتعجبوا من شىء ، إن الليالى يلدن كل عجيبة ...

وليعتبر الطغاة ، فلقد كان كسرى — يوم كان كسرى — أضخم سلطاناً ، وأعظم بنياناً ، وأكثر أعواناً ، فأباد الزمان السلطان ، ودك البنيان ، وأهلك الأعوان ...

* * *

اعتبروا ... فهذا صرح كسرى خال موحش . وهذا قبر سلمان عامر مأنوس . . . قد مات القصر ، وعاش القبر ! قصر كسرى شاهنشاه ، الذى كانت تقوم على بابه الملوك

. . . ضاحين كسرى من وقوف خلف الزحام وخنس

قد مات ، وغدا قبراً فى الفلاة ؛ وهذا القبر ، قبر فارسى من عامة الناس ، يصبح مثوى الحياة ، تلتف به البيوت ، ويؤمه الزائرون ، يقفون حياله خاشعين ، ثم يعودون ولا يلتفتون إلى الايوان ، وبينهما ثلثمائة متر ...

أين كان سلمان من كسرى أنوشروان ؟ أين كان من وزرائه وأتباعه ؟ أين كان من خدامه وحشمه ؟ صه ! لقد خلد سلمان بالاسلام ، فكان أعظم من كسرى !

* * *